دَورُ التعليمِ في مواجهةِ العنفِ

فيليب بوردين(*)

بدايةً، أريد أن أُعرب عنِ امتناني لفضيلة الإمامِ الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ ورئيس مجلس حكماء المسلمين؛ لدعوته ولبُعدِ نظره بالدعوةِ لهذا المؤتمر العالميِّ للسلامِ، بمناسبةِ لقائه مع قداسةِ البابا فرانسيس.

ونُشير بحقٍّ -أمام ظاهرة التطرف المعقَّدة والدرامية- إلى الدَّور الكبير للظروفِ الاجتماعيةِ غيرِ المُرضِيةِ؛ من التهميش لبعض الشبابِ، وإبعادهم من دائرة التوظيفِ والنشاط الاقتصاديِّ.

إن الظلم يؤدِّي إلى الثورة التي تُصبح بحدِّ ذاتها فريسةً للأيديولوجياتِ التي تولِّد العنف، وأريد أن أُذكِّرَ في مداخلتي هذه أنَّ -مِن بين المواقف الظالمة- هناك موقفًا يهدِّد السَّلامَ العالميَّ؛ وهو عدمُ المساواة في فُرص التعليمِ، بحيث إن ذلك يَحرِمُ بعض الشباب والمراهقين من القدرةِ على تحديدِ مصائرِهم بأيديهم، وهو ما يُصيبُ الكرامةَ الإنسانيةَ في مقتلٍ.

لكن يجب الاعترافُ بأن مجتمعاتنا تُعاني من صعوبةٍ كبيرةٍ في احتواء كلِّ الشباب في عمليةٍ تعليميةٍ طويلةٍ وبنَّاءةٍ، ولكن على الرغم من أن الحروب تؤجِّج هذا الموقفَ، إلا أنه يجبُ أن نعترفَ أنه في بعض المجتمعات الغنية والتي تعيش في سلامٍ، كثيرٌ من الشباب مازالوا بعيدين عن المؤسَّسات التعليمية، سواءٌ بسبب عدم تمكُّنهم من الالتحاقِ بها لأسبابٍ اقتصاديةٍ أو ثقافيةٍ، أو بسبب أنهم سقطوا

في دوَّامة الفشل الدراسيِّ، أو أن المدارس والجامعات تتردَّدُ في التوجيه لتعليمٍ أخلاقيٍّ للشبابِ.

ولكوني عالِمَ دينٍ متخصصًا في قضايا الأخلاق فسوف أتحدثُ في ثلاثة محاورَ أعتبرها ذات أولويةٍ لتقديم تعليمٍ أخلاقيٍّ قادرٍ على خدمة السَّلام العالميِّ الدائمِ؛ فالمعلمون لا ينبغي أن يقتصرَ بهم الأمرُ على ذكر قوانينَ لا يعرف الشباب ما يُبرِّرُها، ولكن يجب عليهم أيضًا أن يتجرَّءوا على تعليم الشباب كيف يُواجِهُ البشرُ العنفَ، متسلحين بأناةٍ بالمصادر الدينيةِ، كما لاحظ ذلك الفيلسوفُ جون مارك فيري: «لا يستطيع العلم فعلَ شيءٍ في مواجهةِ هذا العنف المتبادلِ بين بني البشرِ»(*):

١- تربية الشباب على الاستماع لصوت الضمير:

في ظلِّ هذه التحديات التي يُشكِّلُ فيها العنف خطرًا على السَّلام تأتي الكثيرُ من الدعَواتِ للعودة إلى ضمير الإنسانيةِ، ويجب أن لا ننسى أن الضمير هبةٌ من اللهَّ القديرِ الرحيمِ، هذه الهبة التي مُنِحَت للإنسان تخضع أحيانًا لمؤثراتٍ خارجيةٍ يجب أن يَحتاطَ حيالَها الإنسانُ.

واسمحوا لي أن أُذكِّرَ بما قاله أحد أسلافي، الذي كان مديرًا للمعهد الكاثوليكي بباريس (١٩٨١-١٩٨٥)، وهو الكاردينال بيار إيت: «إن تشكيل الضمير يجبُ أن يمرَّ بمراحل معينةٍ؛ وهي البحث عن الحقيقةِ، ثم تحديد المسلكِ، ثم الطريق. باختصارٍ: أن يمرَّ بهذه التدرُّجية التي تُثيرها الأحداث والمقابلات والاختيارات

المُسبَّقة وظروف العُمُر والمسئوليات والعوامل الضرورِيَّة لنموٍّ كل شخصٍ، دون أن ننسىٰ أن هذا الشخصَ ينتمي لوسَطٍ ما وأنه يقع في سياقٍ ثقافيٍّ محدَّدٍ»(*).

إن العائلاتِ والمؤسَّساتِ الدينيةَ والمدرسةَ والجامعةَ تقعُ علىٰ عاتقهم مسؤليةُ العملِ علىٰ العوامل التي تؤدِّي بالضمير الأخلاقيِّ إلىٰ النضوجِ، وإلىٰ السير في الطريقِ المستقيمِ، وعلىٰ أساس هذا القدر الرفيع للضميرِ، فإنه لديه القدرةُ علىٰ معرفة الخيرِ، وتمييزِه عن الشرِّ، وهو ما يُسمِّيهِ علماء اللاهوت القُدامىٰ والمُحدَثِينَ بقمَّة الرُّوحِ.

إن عالَمَنا اكتشَفَ اليوم اكتشافًا مريرًا أنه عندما نصنعُ أصنامَ السلطة والمالِ؛ فإن هذه المَلَكةَ الأساسية للإنسان يُمكن أن تنحرف من جُذورها.

إننىٰ بصفتي رئيسًا لجامعة كاثوليكية فإني أعملُ جاهدًا علىٰ أن تُدرَّسَ هذه العلومُ الإنسانيةُ القديمةُ والمعاصرة، وفىٰ الواقع، فإنه علىٰ عكس هذه الرسائلِ الإلكترونيةِ التي تُبسِّطُ الحقيقة بشكلٍ مُبالَغٍ فيه؛ فإن الارتياد الدءوب والمنفتح علىٰ أدبيَّاتِ العالَمِ يُعطي مدخلًا لكنوز هذا الضميرِ الإنسانيِّ في مُختلِفِ الثقافات.

يكمُنُ التحدي اليومَ فىٰ تعزيز فهم هذه الإنسانياتِ، فىٰ وَحدتِها وتعدُّديَّتِها لدىٰ الشبابِ، ومن خلال مبادرة تسمحُ بفكِّ شَفراتِ اللغة الخاصة للفنونِ والأدبِ يكون الجمال حاملًا لهذه الصبغةِ الإنسانية العالميةِ، كما تَعرِضُ نفسها من خلال الثقافاتِ المتميزةِ.

إن الفنَّانين الأكثر إلهامًا يكونون بوجه خاصٍّ حسَّاسين من نكَبات الانهيارِ، وفى الحقيقة إن الإنسان من قديم الأزل مُغوًى من الشر والعنفِ، وسيظلُّ كذلك حتى آخر العُمُرِ، بيد أن الثورة ضدَّ كل ما يُشوِّهُ النفس الإنسانيةِ تظلُّ إشارة بداخلنا على رِفعةِ هذا الضميرِ.

فى مؤلَّفٍ لألبير كاميه، والذى حاز جائزةَ «نوبل» فى الآداب، نُشِرَ من قِبَلِ ابنته بعد وفاته، يُصوِّرُ فيه الفضيحة التى أثَّرَت في شابٍّ يُدعى كورمريه، والتى تتعلق بالتمثيل بجُثَثِ الجنود أثناء حرب المغرب عام ١٩٠٥م، بينما كان صديقه يرى: «أن كل إنسان يجب أن يُبيحَ لنفسه كلَّ شيء» يُجيبُ كوربريه بكلِّ قوة: «لا، إن على هذا الرجل أن يَمنَعَ نفسه، وهذه سماتُ الرجل الحقيقيِّ».

وتهدُفُ التربية بالأساس إلى السماح للشبابِ من خلال ارتياد الأعمال الثقافية الكبيرة أن يُشكِّلوا لأنفسهم ضميرًا قادرًا على إدانة الشر والعنفِ، واللَّذين يُعتبران وصمةَ عارٍ فى جبينِ الإنسانيةِ.

٢- تعليم ممارسة المسافة النقدية للعقل:

إن الدور المحدد للإنسانية يذكِّرنا بأن التفهم يُساهم في تكوين الضميرِ؛ فالفيلسوف جاك مارتن ألقى الضوء على الترسيخ التجريبيِّ والحسِّي للمفاهيم الأخلاقيةِ، وبدأ بمفهوم الخير(*)، بيد أن المَهمَّةَ الأساسيةَ للتعليم تتمثل في المُضِيِّ قُدُمًا من خلال تشجيعِ المسافة النقديةِ التي تسمح بإعمالِ العقلِ.

كل كائن بشري يتمتع بالعقل، ولكن هذا العقل الذي تظلُّ احتماليةُ استعماله صحيحةً تستدعي مساعدة هؤلاء الذين بذلوا الجهد في اجتياز خطواتٍ كبيرةٍ في العقلانيةِ، وإلى مساعدة الذين تعلَّموا أن العقل يتمُّ تفعيلُه بأسلوبٍ مختلِفٍ في حقول المعرفة المتعددة. كذلك، فإن المنطق الرياضي له قوانينه الخاصَّة التي يجب على المهندس المعماري أن يتمكَّن منها، ولكنها لا تكفي لممارسة فنِّه.

أما فيما يتعلق بالحكم العملي، فإنه يستدعي قواعد القانون والعدالة التي يُعتمَدُ عليها في التقييم المشترك لكرامةٍ إنسانيةٍ، ولعيش مشترك موجَّه نحو السَّلامِ.

إن الحوار بين الأجيال ضروريٌّ هنا، فالشباب متسرع وجامح؛ إنه متعطش للراديكالية، ومن المناسب أن يستقبل، لئلا يتجه نحو الراديكالية التي تَعني رفض الاختلافِ.

إن مجتمعاتنا اليوم تواجه تحدِّيًا، وهو أن تستمع بشكل أكبرَ إلى تطلعات الشبابِ، وفي المقابل، فإن الأجيال الأكبر سنًّا ملزمون بألا يستغلوا هذا التعطش إلى الراديكالية باستخدامه لغاياتٍ غيرِ أخلاقيَّةٍ، ولتحقيق ذلك، ينبغي الاعتماد على رغبة الشباب، وعلى قدرته على خوض التفكير النقديِّ، وذلك بشرط أن يكون مُبادِرًا ومتحلِّيًا بالصبرِ.

إن الشباب في حاجةٍ إلى أماكنَ للتعبير والحوار، حيث يكون محترمًا في قناعاته، على أن يكونَ متنبِّهًا لحدود تفكير لا يزالُ في نشأتِه.

وفي النهاية، إن الحوار بين الأجيال يسمحُ باستقبال إحساس الشباب بالمتغيراتِ، والرُّوح الناقدة للشباب تذكِّرُنا بأن المبادئ والقوانين ليست معطياتٍ غيرَ قابلة للتغييرِ.

إن النصوص المؤسِّسة يجب أن تُوضع في سياقِها التاريخيِّ حتى يتمَّ فهمُها بشكل صحيحٍ، كما أن مَهمَّةَ تفسيرها لا تتوقفُ؛ ذلك أن الإنسان هو كائنٌ تاريخيٌّ، وله مشاكلُ جديدة يتمُّ علاجها بتغير الزمن، وهذا بالتحديد هو نبلُ العقل في العمل على حلِّها.

٣- تعليم مكافحة الشَّرِّ:

غير أن مشكلة الشر والعنف هي مشكلةٌ هيكليةٌ، حتى ولو اتخذت أشكالًا مختلفةً عبر التاريخِ، وإن مكافحة الشر تتطلبُ عملًا حقيقيًّا للفهم: كيف جاء الشر؟ وبأي آلية مرَّ من التخيل إلى الفعلِ؟ وما هي عوامل العنف الجماعيِّ؟ وإن المعلمين في ذلك شأنُهم شأن الفلاسفة، حيث إن لهم رسالةً وهي التفكير في الشر وليس الخير فقط(*).

فمن جهةٍ ، يوجد مفاهيم خاطئة للخير يجب أن تُنتقَدَ، مع بيان أن الشرَّ من الممكن أن يتمثَّل في غطاء من الخير(*)، وهذا هو الحال بالنسبة لجميع أشكالِ العنف التي تُمارَسُ تحت ستار الدينِ، وكذلك جميع أشكال التمييز التي تُمارَسُ بين المواطنين، كما عبَّرَ عن ذلك بكل وضوح فضيلةُ الإمام الأكبر: أحمد الطيب شيخ الأزهرِ.

ومن جهةٍ أخرى، فلو كان الرعب لا يُقارَنُ، فإن التحليل الدقيق للشر يحدِّد ردود الفعلِ المتسلسلة التي يمكن أن تندلعَ، وإن التفكير الجماعي والتدليل يحفظانِ قدرة الإنسان في التغلُّب على الشر الذي يتخلَّلُه بالتسميمِ.

فبدايةً بمرحلة التعليم الأساسيِّ، لا بد أن يكون للمعلِّمين مَهمَّةٌ، تبدو مُرهِقةً في كثير من الأحيان، وهي إجبارُ الأطفال عن الابتعاد على العنف اللفظيِّ والجسديِّ؛ وتعليمُهم الاحترامَ المتبادلَ والسيطرةَ على الاندفاعِ.

ولكن هذا التعليم لن يُؤتي ثمارًا دائمةً إذا حاول أن يُوجِدَ نفسَهُ بالقوة فقط، وفي مرحلةِ التعليم الإعداديِّ، لا بد أن يكون للمعلِّمين مَهمَّةُ توضيح لماذا يكون الخيرُ مرغوبًا أكثر من الشر، وكيف يُمكِنُ للشر أن يُغوِيَ الإنسان من خلال اعتماده على الأهواءِ البشعةِ.

يجب أن تستمرَّ هذه المَهمَّةُ التعليمية من الحرية في المدارس الثانويةِ وفي الجامعةِ، ويجب أن تتخلَّلَ الحياة الاجتماعية في جميع مناحيها، كما أنها تشكِّل أيضًا جانبًا أساسيًّا من مسئولية الحكَّام نحو الشعوبِ.

إن الفلاسفة وعلماء الدين متَّفقون على أن المعركةَ ضدَّ الشر تتطلبُ دعمَ التفكير النقديِّ، والممارسة المتكررة لعددٍ من التدريبات التي تتعهَّدُ العقلَ والجسمَ جملةً واحدةً.

وفي الواقع، إن الأهواء -سواءٌ كانت طيبة أو خبيثة- تدعو الإنسانَ إلى تكوين عَلاقاتٍ مع الآخرين، بحيث تكون الناقلَ المُستدامَ للوئامِ والسَّلامِ.

إن الفضائل تُكتسَبُ من ممارسة الخير، بفضل التكرار والصبرِ، وهناك حاجة أيضًا لتكوين المعلِّمين القادرين على التصحيح التامِّ وبرفقٍ، دون أيِّ إحباط، لأخطاء الصغارِ.

في الواقعِ، إن الفضيلةَ الأسمى والأكثر احترامًا التي يقومُ بها المربِّي هي الأملُ، وإن علماء الدين يُسمُّونها الفضيلةَ الدينيةَ؛ لأنها تأتي من الإله، وتقودُ البشر إليه، ويُقصَدُ بها الشاعر شارل بيغي «الأمل الضئيل»(*)؛ لأنها فضيلة هادئة، تُنسى في بعض الأحيانِ، ولكنها تعكسُ رُوحَ الطفولة التي تنعش القدِّيسين، ولن توجد التربيةُ الأخلاقيةُ دون الأملِ في أن العالمِ الأكثر عدلًا الذي نعملُ من أجله - يُمكن بالفعل تحقيقُه.

لكلِّ هذه الأسباب، فإن بناء السَّلامِ في العالَمِ يجب أن يرتبطَ بقوةٍ بضمان حصولِ الجميع على التعليم؛ فالتعليمُ الجديرُ بهذا الاسم يسمو بالإنسانِ، ويسمح له بالارتقاء بمساعدةٍ من اللهِ، كما أنه يُرسِّخُ في قلب الإنسان الرغبةَ في السَّلامِ، والتزامَ التغلب على العنفِ، وأتمنَّى أن تُوحِّدَ هذه المَهمَّةُ النبيلةُ صفوفَ كل رجال الدِّينِ في معركةٍ واحدةٍ!